التغيير في حياة الأمم
وعوامل الثبات والاهتزاز

بقلم الدكتور / أحمد محمد العسال
الأستاذ بالمعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض

حصل على الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية من جامعة كامبرج سنة ١٩٦٨م

حصل على دبلوم الدراسات العليا في القانون من معهد الدراسات العربية العالمية بالقاهرة سنة ١٩٥٩م

تلقى تعليمه قبل ذلك بثانوية طنطا، ثم بكلية الشريعة بجامعة الأزهر.

معنى التغييـــر :

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته : التغيير يقال على وجهين : أحدهما لتغيير صورة الشيء دون ذاته، يقال : غيرت داري إذا بنيتها بناء غير الذي كان. والثاني لتبديله بغيره نحو : غيرت غلامي ودابتي إذا أبدلتهما بغيرهما نحو قول الله عز وجل : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1].

وقال في اللسان : (وتغيّر الشيء عن حاله : تحول، وغيّره حوله وبدله كأنه جعله غير ما كان وفي التنزيل العزيز ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيّرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[2] قال ثعلب : معناه حتى يبدلوا ما أمرهم الله. والغير الاسم من التغير، وأنشد عن اللحياني قوله :ـــ

إذ أنـا مغلـــوب قليـــل الـــغير ....، قال : ولا يقـــال إلا غيّـــرت

وذهب اللحياني إلى أن الغير ليس بمصدر، إذ ليس له فعل ثلاثي غير مزيد، وغيّر عليه الأمر : حوله. وتغايرت الأشياء اختلفت. والمغيّر الذي يغير على بعير أداته ليخفف عنه ويريحه...

وَغِيَرُ الدهر : أحواله المتغيرة : وورد في حديث الاستسقاء « **من يكفر بالله يلق الغير** » أي تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد.[3]

والمتأمل فيما أورده الراغب واللسان يجد الكلمة تأتي لثلاثة معان :

أحدها : تغيير صورة الشيء دون ذاته، **وثانيها** : تبديله بغيره وهو معنى تحويله وجعله غير ما كان، **وثالثها** : التخفيف وإصلاح شأن الشيء كما يخفف صاحب البعير عن بعيره من رحله ويصلح من شأنه، وبحثنا سيكون في التغيير بمعنى

---

(١) المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفى (٥٠٢ هـ) نشر المكتبة المرتضوية، طهران ص ٣٦٨، والآية سورة الرعد / ١١.

(٢) سورة الأنفـال / ٥٣

(٣) لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي طبعة بيروت ١٩٥٥ / ١٣٧٥ جـ ٥ / ٤٠.

التبديل، والذي وردت الآيتان القرآنيتان فيه، والذي استشهد كل من اللسان والمفردات بهما في توضيح المراد من التبديل، ذلك أننا نريد أن نكتشف عوامل الاهتزاز والضعف التي تودى ببنيان الأمة وتوهنها وتجعلها مستحقة لعقوبة الله ونقمته، ونريد أيضا أن نكتشف عوامل القوة والثبات التي تورث الأمة العزة والقوة والطمأنينة والأمن وتجعلها مستحقة لخلافة الله في الأرض على نحو ما وعد الله أسلافنا ووعدنا في قوله المحكم : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾(١)

لقد قص الله علينا في محكم كتابه قصص أنبيائه ورسله وما حدث لهم مع أممهم وأقوامهم ليبين لنا سننه ونواميسه، وليكون هذا القصص لنا عبرة نتعلم منها، ودروسا نعيها ونستفيد منها لما يحدث في حياتنا وينزل بنا، قال الله تعالى : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾(٢).

وجعل أيضا في حركة الزمن وتدافع الأمم وصراعاتها ومداولة النصر والهزيمة بينها عبرة تؤخذ، وامتحانا وابتلاء يعرف به الصادقون من غيرهم، وتعرف به سنن الخير والصلاح وسنن النصر والتمكين، وأسباب الهزيمة والفشل، يقول الله تعالى في نهاية قصة سيدنا داود وما حدث له من نصر على جالوت : ﴿ **ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾(٣).

---

(١) سورة النور / ٥٥

(٢) سورة يوسف / ١١١

(٣) سورة البقرة / ٢٥٠ ــ ٢٥١

ويقول الله تعالى في غزوة أحد وما حدث من نصر في البداية ثم هزيمة سببها المتعجلون بجمع الغنائم وتركهم أماكنهم : ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين** ﴾[1]، ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾[2]

بين السنن الكونية والسنن الاجتماعية :

لقد خلق الله عز وجل هذا الكون بالحق وجعله محكم الصنع منضبط القوانين لا ترى فه خللا ولا اضطرابا، يقول سبحانه : ﴿ **الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير** ﴾[3] ويقول : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[4]

وهكذا فإنه ما من شيء في بنيان الكون وتركيب العالم والحياة... يخضع للصدفة من أصغر شيء فيه يغور في الطوايا التي لا تراها العيون : نيوترونات، وبروتونات، والكترونات، وجينات وكرومسومات، وحتى السدم والمجموعات الشمسية الهائلة والمجرات المنتشرة عبر مساحات لا يحيط بها خيال إنسان !!

كل شيء يجد نفسه مضبوطا ضمن إرادة الله وعلمه وتدبيره للخلق والصيرورة

---

(١) سورة آل عمران / ١٤٠
(٢) سورة آل عمران / ١٥٢
(٣) سورة الملك / ٣ ــ ٤
(٤) سورة القمر / ٤٩

والمصير إنها القدرة الإلهية التي تحكم سنن الكون والحياة فلا تند ولا تطغى)[1]، يقول الله تعالى : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تتحدث عن الإبداع والانضباط والتي اكتشف العلم شيئا منها فعاد مقرا بالعجز مسلما بالقدرة المهيمنة الشاملة...، وإذا كان الأمر هكذا بالنسبة للكون وسننه ونظامه بهذا الوضوح والدقة، فهل هو كذلك بالنسبة لسنن الله في الحياة الاجتماعية ؟ نعم : فإن السنن الكونية وسنن الله في الحياة البشرية متعانقتان مطردتان لا تتخلفان ولا تتوقفان، والقرآن يكرر هذه الحقيقة بالنسبة للحياة البشرية حين يقول : ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[3]. ويقول في آية أخرى : ﴿ **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾[4].

ويؤكد هذه الحقيقة ويبينها في أعقاب كل جزاء يحل بقوم نتيجة ما قدمت أيديهم، يقول في قريش وما حل بهم يوم بدر : ﴿ **ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلاَّم للعبيد** ﴾ ويردف ذلك بأنها سنة عامة إذ يقول : ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم** ﴾[5] والسنن نوعان : سنن صالحة هادية إلى الحق وإلى طريق

---

(١) إشارات قرآنية للدكتور عماد الدين خليل، مجلة العربي العدد، ٢٤٧ ــ رجب ١٣٩٩ / يونية ٧٩ ص ١٤

(٢) سورة يس : ٣٧ ــ ٤٠ .

(٣) سورة آل عمران / ١٣٧

(٤) سورة الأحزاب / ٦٢

(٥) سورة الأنفال / ٥١ ــ ٥٣

مستقيم، يبين ذلك قول الله تعالى : ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم. والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما** ﴾[1] والنوع الآخر سنن فاسدة مدمرة تقود إلى الباطل وإلى طريق البوار وذلك على نحو ما أشار القرآن في قوله سبحانه : ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾[2] وقوله ـــ ﷺ : ﴿ **ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء** ﴾[3]. قال في اللسان : **يريد من عملها ليقتدي به فيها، وكل من ابتدأ أمرا عمل به قوم بعده قيل : هو الذي سنه**[4]

والآن وبعد أن وضح لنا معنى التغيير، ودور السنن بقسميها نريد أن نعرف مكان الفطرة البشرية من هذه السنن، وكيف يحدث التغيير فيها، وما العوامل المؤثرة في هذا التغيير إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

الفطـــرة والسنـــــن :

خلق الله عز وجل الفطرة البشرية وأودع فيها حب الخير والاستجابة للحق والرغبة فيه، وجعلها ودينه القيم الذي شرعه لعباده شيئاً واحداً، يقول سبحانه : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[5]. وانظر إلى تعبير القرآن ﴿ **فطر الناس عليها** ﴾ أي جميعهم، ثم قوله سبحانه ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ أي لا تغيير ولا اختلاف ثم قوله في نهاية الآية : ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾.

ويؤكد ذلك ويقرره قول النبي ـــ ﷺ ـــ في الحديث الصحيح الذي رواه

---

(١) سورة النساء / ٢٦ ـــ ٢٧

(٢) سورة ابراهيم / ٢٨

(٣) رواه مسلم

(٤) لسان العرب / ١٣ / ٢٢٥

(٥) سورة الروم، الآية ٣٠

أبو هريرة رضي الله عنه : ﴿ **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟** ﴾ ثم يقول أبو هريرة : (اقرأوا إن شئتم ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾،الآية).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن النبي ــ ﷺ ــ قال : (يقول الله تعالى : ﴿ **إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا** ﴾

إن أصل سنن الخير والفلاح مصدرها من عند الله عز وجل فله سبحانه المثل الأعلى والأسماء الحسنى والصفات العلا، وهو يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ؛ لذلك كان الإيمان به مصدر الخير كله وكان الإشراك به ظلماً عظيماً للفطرة وانتكاساً لها ومخالفاً لطبيعتها وللموثق الذي أخذ عليها في عالم الذر، يقول الله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾[1]

ومن هنا إذا دعيت هذه الفطرة إلى الإيمان بالله والقيام بشرائع البر والحق والعدل استجابت، ووجدت في ذلك سعادتها وأمنها وامتدادها، وحققت بذلك سنن الخير والصلاح في حياتها وحياة مجتمعها. أما إذا التوى زمامها وأضلها أولياؤها عن جادة الحق والإيمان بالله، وغُذِّيت بمناهج وعقائد بعيدة عن هداية الله... انفرط عقدها؛ وانحلت عروتها فصارت مستعدة لقبول سنن الفساد والضلال ومصداق ذلك ما حدث في الجاهلية قبل الإسلام، ثم ما أحدثه الإسلام في العرب والنقلة التي نقلهم إليها ثم ما نراه اليوم في جاهلية القرن المعاصر، أما العرب في الجاهلية فقد تخبطوا في عقائدهم وأخلاقهم وعباداتهم وسياساتهم : عبدوا الأصنام وجعلوها واسطة بينهم وبين الله، وفي عباداتهم طافوا بالبيت عراة وهامت كل قبيلة حول صنم تعظمه وتقدسه، وفي أخلاقهم استحلوا الخمر والزنا، ووأدوا بناتهم وظلموا نساءهم، وفي

---

(١) سورة الأعراف / ١٧٢

سياساتهم تعصبوا لقبائلهم وأغار بعضهم على بعض لأتفه الأسباب وأقل الأمور وهذا دليل الاضطراب والانحلال والضلال...

أما ما أحدثه الإسلام في نفوس العرب من هداية واستقامة فحدث ولا حرج من استقامة في العقيدة وفي العبادة وفي الأخلاق وفي المعاملات... وهذا ما سأعود عليه عما قريب إن شاء الله.

أما جاهلية الغرب الحديث فانظر إلى تحلل الأخلاق واضطراب الموازين والوقوف مع الظالمين من اليهود ضد المظلومين من مسلمي فلسطين، وما تطالعك به حالة الزنوج في أمريكا... وجنوب أفريقيا فضلا عما تعج به مجتمعاتهم من منكرات تحمل في طياتها حتفهم وزوال أمرهم.

ثبات السنن والقيم في الإسلام واضطرابها عند غيره :

وإذا كانت الفطرة البشرية قد فطرت على حب الإيمان بالله والاستقامة على شرائعه ؛ فإن دور الإسلام أن يجنب هذه الفطرة مزالق الانحراف ويبعدها عن عوامل الزيغ والضلال ؛ ذلك أن الله عز وجل جعل هذه الحياة امتحانا لعباده واختبارا لحسن تصرفهم وعملهم، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾[1]، ﴿ **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾[2].

وكان من هذا الامتحان ما خلقه الله في الإنسان من دوافع جبلية تتطلب الإشباع وتدفع إلى تعمير هذه الحياة وتنميتها بالعمل الصالح والسلوك المستقيم، ولكن هذه الدوافع لما فيها من ثورة الشهوة وقوتها كانت سبيل الشيطان إلى نفس الإنسان وحياته لتتم بذلك حقيقة الامتحان وأسلوبه في هذه الحياة، وبذلك يتصارع في الإنسان قوة الخير الذي فطره الله عليه، والدوافع التي يستغلها الشيطان وتكون ميدانه

---

(١) سورة الكهف / ٧

(٢) سورة الملك / ١ ــ ٢

ومحل إغراءاته وغواياته على نحو ما بين القرآن في وصف الشيطان إذ يقول على لسانه : لعنه الله ﴿ **وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا. ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا** ﴾[1].

ومن هنا كانت مهمة الإسلام تزكية الفطرة وتسليحها بشرائع الحق وتكليفها بواجبات الخير والهدى لتنضبط في سيرها وتستقيم في حياتها فلا يميل بها هوى جامح أو شهوة منحرفة عن طريق الحق : وبذلك لا يجد الشيطان إليها سبيلا وصدق الله إذ يقول : ﴿ **ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها** ﴾[2]، ويقول في مهمة نبيه الكريم : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب، والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾[3]

هذه التزكية التي جاء بها الإسلام جاءت شاملة لحياة الفرد، والجماعة : لم تترك جانبا من جوانب الحياة ولا أمرا من أمورها إلا بينته ووضحته، وإنك لتجد مصداق ذلك في النظام الحق الذي وضعه العليم الخبير وجاء به الوحي ؛ فلا غرو حينئذ أن تكون رسالة الإسلام هي رسالة الحق الكامل التام، يقول الله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ **قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل** ﴾[4].

إن هذا الهدى الذي جاءت به هذه الرسالة بثه الله في خلقه ليعمل في الفطرة البشرية كما تعمل النواميس الكونية سواء بسواء، فكما أن الماء ينزل من السماء فيحيى الله به الأرض بعد موتها فكذلك النفوس البشرية إذا اهتدت بالوحي وقامت

---

(١) سورة النساء / ١١٨ ــ ١٢٠

(٢) سورة الشمس / ٧ ــ ١٠

(٣) سورة الجمعة / ٢

(٤) سورة يونس / ١٠٨

بالتكاليف حيت وترعرعت. يقول الله تعالى : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾[1]، وفي الحديث الصحيح : ﴿**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها، وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به** ﴾[2]

هذه التزكية التي تحيا بها النفوس وتصلح بها الجماعات هي قوانين الله في خلقه ونواميسه لصلاح عباده يقول الله تعالى : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾[3] قال ابن كثير في معنى الآية : (ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين كما قال تعالى :﴿ **وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم** ﴾[4] وقال : ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[5]، ويمشي في سياق الآية التي قدمناها آنفا ويؤكدها قوله سبحانه : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين، وما كان ربك ليهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾[6].

وسنن الله عز وجل تعمل عملها في نفوس عباده ومجتمعاتهم وتؤتى ثمرها لمن عمل بها ووفاها حقها والتزم بها حتى ولو كان غير مؤمن، ولكنها في الكافر تقف عند

(١) سورة الأنعام /١٢٢

(٢) متفق عليه، رياض الصالحين طباعة دار الشعب بالقاهرة، ص ٣٩٤.

(٣) سورة هود / ١١٧

(٤) سورة هود / ١٠١

(٥) تفسير ابن كثير، ط. دار الأندلس ببيروت ج. ٥٨٦/٣

(٦) سورة القصص / ٥٨ ــ ٥٩

حد هذه الحياة الدنيا ولا تتجاوزها. قال تعالى : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾[1].

ولكن الفرق بين عمل السنن في المجتمع المؤمن وعملها في المجتمع المنحرف : أنها في المجتمع المؤمن مستقرة وثابتة مطردة وخالدة، إذ هي مرتبطة بمعايير أخلاقية وبقيم معنوية تتجاوز هذه الحياة إلى الدار الآخرة وما أعد الله فيها للمحسنين من ثواب مقيم وأجر جزيل وهذا من شأنه يربط الأمة كلها بمثل ثابتة لا تختلف باختلاف الناس ولا البيئات وصدق الله : ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم** ﴾[2]، ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾[3] أما في المجتمع غير المسلم فهي غير مستقرة وغير ثابتة ومتغيرة ؛ لأنها مرتبطة بالقيم المادية، ومن شأن القيم المادية التغيير وعدم الثبات ؛ إذ أساسها المنفعة والمتعة، لذلك تكون الأخلاق فيها نسبية والقيم مهتزة وتصبح القاعدة : (**الغاية تبرر الوسيلة**) وها أنت ترى كيف أحل اليهود لأنفسهم أموال غيرهم بغير حق، وكيف عم طوفان الوسائل الدنيئة الحياة الاقتصادية ــ من رشوة وتجارة بالرقيق الأبيض وإفساد للذمم ــ حياة الناس اليوم لدرجة أن الدول تنادى الآن لعمل ميثاق دولي يحاسب الشركات ويأخذ عل يد المفسدين ولكن هيهات ؛ فقد اتسع الخرق على الراقع وعمت البلوى ولابد للأمر من علاج جذري، وصدق الله تعالى : ﴿ **والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون** ﴾[4].

إن المجتمع المسلم تضبطه قاعدتا التكاليف والأخلاق : فالتكاليف تذكره دائما بالله وأن الغاية من الحياة هي عبادة الله عز وجل، وبذلك تصبح أنشطة الحياة

---

(١) سورة هود / ١٥ ــ ١٦
(٢) سورة آل عمران / ١٠١
(٣) سورة إبراهيم / ٢٧
(٤) سورة الأعراف ٥٨

وسائل لهذه الغاية ؛ ومن شأن هذه التكاليف أن تثمر الأخلاق الطيبة الكريمة، ويأتي قانون الشريعة فيدعم هاتين القاعدتين الهائلتين في حياة الناس ويظلهم بالمظلة الواقية من الانحراف أو الفسق، ويضبط العلاقات بينهم على أساس حقوق الله وحقوق الناس، وعلى أساس قاعدة الحلال والحرام. وصدق الله : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾[1] ويقول الرسول الكريم : ﴿ **سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.. ومنهم : إمام عادل** ﴾[2]. ويقول ــ ﷺ ــ : (**أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**)[3].

وإذا كان المجال يقتضي أن يوضح الأمر بمثال فلنأخذ قضية البيع والشراء في الإسلام وكيف تنضبط بالمعايير الخلقية السليمة، ويدخل فيها وازع الإيمان وابتغاء رحمة الله ورجاء ثوابه، وكيف تتدخل الشريعة لتحسم الأمر عند الانحراف وتجاوز الأخلاق الطيبة... يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم** ﴾[4] ويقول ــ ﷺ ــ : ﴿ **البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبيّنا بورك لهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما** ﴾[5].

وبناء على نص القرآن الكريم والحديث الصحيح فقد أصبح محرما استعمال أي وسيلة باطلة للحصول على المال، ووجب أن تكون الوسائل كلها صالحة ومستقيمة ؛ فإذا حدث وكتم البائع شيئا من صفات المبيع أو دلس بأن ظهر المبيع على غير وجهه، فعلاوة على أن الله عز وجل ينزع بركته من هذا البيع ويستلزم ذلك اكتشاف كذب البائع وعدم صدقه، وفي هذا نزع للثقة فيه وعدم احترامه في المجتمع

(١) سورة النحل / ٩٠
(٢) رواه البخاري
(٣) متفق عليه
(٤) سورة النســاء / ٢٩
(٥) رواه البخاري

المسلم ؛ فإن الشريعة ترد البيع وتعيد إلى البائع سلعته جزاء كذبه أو كتمانه أو تلزمه بثمن المثل، وإذا كان المشتري استفاد شيئا رد قيمته، يوضح ذلك حديث المصراة[1]. يقول ﷺ : **(لا تصروا الإبل والغنم فمن ابتاعها بعد فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها إن شاء أمسك، وإن شاء ردها وصاعا من تمر)**[2]. وهذا ما يطلق عليه الفقهاء بخيار التدليس، ومثله خيار الغبن وذلك بأن يكتشف المشترى أن البائع غبنه في ثمن السلعة وأعطاه إياها بأكثر من ثمن المثل.

أسباب الاهتزاز والضعف :

وإذا كان الأمر كما ذكرت في ثبات السنن الصالحة واطرادها وأنها أشد ما تكون في المجتمع المسلم، وأنها مهتزة وغير مطردة في المجتمع غير المسلم ؛ فلماذا قل نصيبنا من نتائجها الطيبة في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة ؛ بل نرى على النقيض من ذلك اهتزازا في الرؤية للغاية من الحياة، واضطرابا في السلوك، وضعفا عاما مكن اليهود من اغتصاب فلسطين، وجعل التيارات الغربية الوافدة تتقسم الأمة وتحاول التسلط عليها وتوجيهها ؟!!

إن إدراك أسباب هذا الواقع المر لا يخطئه صاحب البصيرة النافذة، ولا ذو التفكير المستقيم ؛ فكما أسلفنا، إن حظ أي مجتمع من النجاح أو الفشل أو التقدم أو الهبوط إنما يكون بمقدار عمله بهذه السنن مجتمعة أو تركه لها، والواقع الذي نشهده أن حصيلتنا من العمل بسنن الله ووفائنا لها حصيلة ضعيفة ؛ لذلك كان حالنا كما نرى. وصدق الله : ﴿ **وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾[3]

ومن هنا فلا بد من معرفة الأسباب الكلية والعوامل الرئيسية التي سببت ذلك الاهتزاز الهائل في النفوس والأخلاق وتلك الحالة المرضية الخطيرة لندرك الطريق إلى

---

(١) أصل التصرية : حبس الماء، يقال : صريت الماء إذا حبسته. وقال الشافعي : هي ربط أخلاف الناقة والشاة وترك حلبها حتى يجتمع لبنها ويكثر فيظن المشترى أن ذلك عادتها) سبل السلام ٣/٢٦

(٢) متفق عليه.

(٣) سورة النحل، ١١٨

العلاج ومن ثم النهوض والإصلاح... ويمكن إرجاع الأسباب إلى ثلاثة عوامل رئيسية :

١ ــ ضعف الأمة داخليا وفقدانها الثقة بنفسها.

٢ ــ عجز القيادة في الأمة وعدم قدرتها على ملء الفراغ وانفصالها نفسيا وفكريا وعمليا عن أهداف الأمة العامة.

٣ ــ تطلع هذه القيادة في كثير من مجتمعاتنا لملء هذا الفراغ عن طريق استعارة نماذج الحضارة الغربية في النهوض والإصلاح وفرضها هذه النماذج بالحديد والنار على الأمة.

إن هذه العوامل الثلاثة متداخلة ومتشابكة وكل منها يساعد الآخر ولا يمكن فصلها عن بعضها الآخر. إلا أن السبب الرئيسي يبدأ من ضعف الأمة داخليا وعدم قدرتها على مكافحة أسباب العجز والضعف، ومن ثم تصبح عندها القابلية لتقبل أمراض التخلف والضعف كالجسم العليل الذي تضعف فيه المقاومة فيصبح مرتعا للجراثيم والميكروبات.

وضعف الأمة داخليا، لا يأتي فجأة ولا يحصل بغتة، وإنما هو نتيجة مراحل طويلة وأجيال متعاقبة أهملت فيه الأمة تجديد نفسها، فركنت إلى النوم واستسلمت للأحلام، وعاشت على الذكريات ورضيت بترديدها فأصبحت خارج الأحداث معزولة عن معركة الحياة، فلم تواكب التطورات في الوسائل ولم تواجه التحديات، فضعف فكرها، وسادها الخمود، وعم التقليد، وانتشرت الأمية، وانشغل الناس بالجزئيات، وافتقدوا الوعي بواقعهم والمشكلات التي تواجههم، واستفحل أمر الشهوات والأهواء، ففشا الظلم وظهرت النفعية والانتهازية وأخلاق النفاق، فانحلت رابطة الأمة وانعدم الروح العام الذي يربط بين أبنائها، وأصبح كل إنسان مشغولا بنفسه عن أمته... وتأخرت الدولة وأجهزتها، وأصبحت غير قادرة على النهوض والعطاء والتجديد... وبدأ الفراغ الداخلي يعمل عمله في التطلع إلى الأمم الأقوى.

وجاءت الموجة الأوروبية الاستعمارية المتربصة بتفوقها وقدرتها ونهمها وجشعها فأغارت على هذه المجتمعات لتستغل هذه الأمراض المنتشرة وتخترق الحواجز النفسية

وتبدأ في اصطناع قادة جدد لهذه الشعوب، وتستغل ما فيهم من ضعف... وتلوح لهم بالسلطان والدولة، وذلك كما حدث للشريف حسين في مكة. وكيف استعمله الإنجليز ولوحوا له بالخلافة العربية ليضربوا به جيش الخلافة العثمانية في ظهره، ويستعملوا البدو عن طريق لورانس في تحطيم خط حديد الحجاز شريان الحياة وأعظم مشروع آنذاك ؟؟!

فانظر إلى المستوى الهابط من الجهل والأنانية وفقدان الوعي **كيف أوصل الناس إلى التعاون مع العدو اللدود ودعوته إلى احتلال الأرض، واقتسام الأوطان على نحو ما تم بعد** وبدأت به مأساتنا الحديثة التي لا زلنا نعيشها **فكان الشريف حسين بحق كالمستجير من الرمضاء بالنار.**

في هذا الجو المسموم بدأت الأفكار الأوروبية تأخذ طريقها وذلك مثل التشكيك في قدرة الدين على النهوض بالأمة، وأن الدين لا يتناسب مع عصر التنوير... وأن الدين من بقايا العصور الوسطى، وأنه مناقض للعلم، وأنه لا بد من الأخذ بالمنهج الأوروبي في الحياة والسياسة والأخلاق وفصل الدين عن السياسة. وأن الرابطة الإسلامية صارت عديمة الجدوى، قليلة النفع، ولا بد من التحول إلى الرابطة الوطنية والقومية والأخذ بالقوانين الغربية، وترك الشريعة والتخلص منها أو تقليصها وجعلها في الدائرة الشخصية البحتة.

وزاد الطين بلة القدرة الاجتماعية والسيادة السياسية للمستعمرين الأوروبيين واعتمادهم في إذابة مجتمعاتنا واحتوائها على بعض **أبناء البعثات التي تعلمت على أيديهم** والتي أرسلت اليهم من تركيا ومصر والشام **وعلى الأقليات الموجودة في مجتمعاتنا**، فقد عمل فريق من هؤلاء المبعوثين حينما عادوا على حمل رسالة التغريب يعاونهم في ذلك الأقليات، ويمنحهم القوة والنفوذ تمكن الدول المستعمرة من بلادنا آنذاك.

وبدأ تغيير بنية الحكم واتجاه الثقافة والولاء من الإسلام بشموله وقوته إلى الحضارة الغربية وقيمتها. وحدث **الزلزال الكبير بالإجهاز على تركة الرجل المريض**

(الخلافة العثمانية) كما كانوا يقولون، وتولى تلميذ مخلص من تلامذة الغرب ألا وهو مصطفى كمال أتاتورك حمل رسالة التغريب ليحمل فأسه ويحاول أن يقوض البناء من أساسه في تركيا ــ حاضرة الخلافة والمدافعة عن الإسلام والعالم العربي قرابة أربعة قرون والواقفة أمام أطماع اليهود في النصف الأول من القرن العشرين... الخ ــ **لقد أجهز أتاتورك على الخلافة ونادى بالطورانية[1] محل الإسلام، وأراد أن يجتث الثقافة الإسلامية فحرّم العربية وأجبر الناس على قراءة القرآن بالتركية. وحوّل كتابة اللغة التركية من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية، ليعزل الجيل الجديد عن تراثه وثقافته**، واستورد القوانين الغربية، وفرض السفور ووصل في عدائه أن ألغى قانون الأسرة وجعله قانونا علمانيا وفرض اللباس الأوروبي... وحرّم الطربوش والعمامة، كل ذلك بالحديد والنار.

بهذه التجربة المرة في مجتمعاتنا المعاصرة **تمزق ولاء الأمة** وتشتت فكرها، وتحطمت نفسيتها وتوقفت مسيرتها، فقد عاشت هذه الأمة بالإسلام، والإسلام بطبيعته رسالة حياة حضارة، وهو في قيمه ونظرته ووجوده في واقع الأمة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية يخالف مفهوم الدين عند الغربيين، فإذا كان الدين عند الغربيين قد حرّف وبدل وصار مفهومه (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) بمعنى الفصل بين الدين والحياة... ؛ **فإن الإسلام هو توجيه الحياة كلها بمختلف أنشطتها وجعل غايتها ووجهتها لله عزّ وجل.**

يقول الله تعالى على لسان رسوله : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[2] ولهذا كانت شريعة الإسلام هي دستور الحياة الفردية والاجتماعية بحيث لا يخرج أي أمر عن

---

(١) الطورانية : نسبة إلى سلالة طوران شاه التي جاءت منها قبائل الأتراك **ما قبل الإسلام.**

(٢) سورة الأنعام ١٦٢ ــ ١٦٣

نطاقها ونظرتها. يقول الله تعالى على لسان رسوله : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾[1] ويقول : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيرا من الناس لفاسقون، أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾[2]

ومن هنا فدعاة التغريب واللادينية في مجتمعاتنا إنما يحاربون الفطرة الخيرة في الأمة والتي جاء الإسلام فقواها ونماها وأعطاها امتدادها ؛ ولذلك فرغم المحاولات المريرة التي حاولها هؤلاء الدعاة **ومن أبرز أمثلتهم (أتاتورك)**، فإن شعبا كالشعب التركي رفض كل المحاولات التي حاولت ردته وتغيير وجهته وسلوكه، **وحالما حانت الفرصة عبر عن إسلامه وتدينه ويكفي مثلا على ذلك شبابه ووفوده إلى بيت الله الحرام** بعد انقطاع أكثر من خمس وعشرين عاما، لكن النتيجة أن هذا الصراع الذي قام به أتاتورك وطغمته دفع ضريبته هذا الشعب عزلة وتأخرا وتمزقا وضياعا. **وعلى ذلك فقس باقي المجتمعات التي رزحت تحت أنظمة من هذا النوع.**

والمشكلة الأساسية أن دعاة التغريب واللادينية ــ سواء كانوا يتبعون الفلك الغربي الأوروبي، أو يتبعون الفلك الشيوعي الاشتراكي ــ هم مقلدون تائهون يرددون كلام سادتهم وأوليائهم، ويلفقون ويزورون في دعاويهم وآرائهم، فلا قدرة عندهم على قول كلمة الحق، ولا شجاعة عندهم في النزول على حكم الأمة ؛ وكل عملهم في الأمة هو عمل الغواة والسحرة، فما أضخم شعاراتهم، وما أكثر ضجيجهم... وما أسوأ أخلاقهم، افتقدت الأمة فيهم القدوة الصالحة، وانتشر بهم الكذب والفجور والتحلل، وعم بهم الإرهاب والتنكيل، وغاض العدل والإنصاف، وفقدت الطمأنينة وضاعت الثقة، فأصبحوا كابوسا ثقيلا وليلا طويلا، فما أبعد التحضر عن سلوكهم وأعمالهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) سورة الجاثية ١٨

(٢) سورة المائدة ٤٩ ــ ٥٠

هذه هي أسباب الضعف والاهتزاز بشكل مجمل وبإشارات تغنى عن عبارات، ولا خلاص منها إلا بعملية تغيير جذرية تقوم بها نفوس قوية تأخذ بسنن الله وتمضي على بركة الله، تزيل الخرائب وتعيد بناء الأمة من جديد في فكرها وعملها وسلوكها، وتواكب هذا العصر بكل ما فيه من وسائل ومبتكرات، وتستطيع حينذاك أن تغلب تيار الفساد وتنهي أمره، وتلم شعث الأمة وتمكنها من أن تستأنف مسيرتها من جديد فيتحقق لها ما وعدها الله به من عز ونصر وتمكين.

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[1]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أحمد محمد العسال

---

(١) سورة محمد الآية ٧

المـــراجـــع

ـــ القـــرآن الكـــريـــم.

ـــ تفسير ابن كثير للحافظ عماد الدين اسماعيل الخطيب بن كثير الشافعي ـــ دار الأندلس للطباعة والنشر ـــ بيروت ـــ الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ /١٩٦٦ م.

ـــ تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد أحمد الأنصاري القرطبي ـــ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـــ القاهرة ١٣٨٧ هـ /١٩٦٧ م.

ـــ فتح الباري ـــ للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـــ المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة ١٣٨٠ هـ

ـــ صحيح مسلـــم

ـــ سبل السلام ـــ الإمام محمد اسماعيل الكحلاني الصنعاني المعروف بالأمير ـــ طباعة ونشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـــ الطبعة الرابعة ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م.

ـــ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ـــ المكتبة المرتضوية ـــ طهران ـــ بين الحرمين.

ـــ لسان العرب ـــ للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد مكرم بن منظور الأفريقي المصري ـــ دار بيروت للطباعة والنشر ـــ ١٩٥٦ م / ١٣٧٥ هـ .

ـــ فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ اعداد محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ـــ الطبعة الأولى ـــ مطبعة الحكومة ـــ مكة.

ـــ تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ـــ ترجمة نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي ـــ الطبعة الرابعة ـــ دار العلم للملايين / بيروت / تشرين ثاني ١٩٦٥ م

— حتى يغيروا ما بأنفسهم — جودت سعيد — الطبعة الثانية — ١٣٩٥ / ١٩٧٥ م.

— وجهة العالم الإسلامي — مالك بن نبى.

— رياض الصالحين — محي الدين أبي زكريا يحي شرف الدين النووي الشافعي — طباعة دار الشعب — القاهرة.

المجـــلات :

— العربي — إشارات قرآنية للدكتور عماد الدين خليل العدد ٢٤٧ — رجب ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م